خطبة صلاة الجمعة 13/ 12/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الدعوة في المدينة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السابعة في سلسلة علمتني السيرة النبوية، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة، والثالثة: جهاد الدعوة، والرابعة: سَفَر الدعوة، والخامسة: الهجرة والدعوة، والسادسة: السنة الأولى في المدينة.

وعنوان خطبة اليوم: **الدعوة في المدينة**.

أيها الإخوة:

نَشِطت الدعوة إلى الإسلام في المدينة المنورة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من صحابته الكرام يدعون الصغير والكبير والرجل والمرأة والأفراد والجماعات ويستقبلون للدعوة الوفود ويرسلون البعوث، يخاطبون بها الملوك والأمراء، يواصلون لأجلها كَلال الليل بكَلال النهار.

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملكِ الحبشة، والمقوقسِ ملكِ مصر، وكسرى ملكِ الفرس، والمنذرِ بن ساوى حاكمِ البحرين وهَوْذَة بن علي صاحبِ اليمامة، والحارثِ الغساني صاحبِ دمشق، وإلى غيرهم.

وأسلم ممن تلقى الدعوة من أسلم، وأظهر الإسلامَ آخرون وأبطنوا الكفر فظهر النفاق، وردّ ردّاً جميلاً ولم يُسْلم فريق ثالث، وردّ ردّاً قبيحاً فريق رابع، وناصب الدعوةَ العَداءَ فريق خامس. وأرادوا إيقافها فكان منهم بث الشائعات وقطع الطريق وقتل الدعاة وترويع الآمنين والتمالؤ على الإسلام والمسلمين وإعلانُ الحرب.

وخلال سنوات المدينة المنورة العشر واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب مع أعداء الدعوة في سبع وعشرين غزوة، وستين سرية، ولم يكن في كلّها قتال.

وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسّرايا أقلُّ دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، (1018) قتيلاً من الفريقين. وكانت هذه الحروب قائمةً من جانب المسلمين على الأصلين القرآنيين الحكيمين: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، وكانت خاضعة لآداب خُلُقية لم يسمع بها العالم من قبل.

ومع جميع المحاولات لإيقاف الدعوة فقد انتشرت، ومع جميع العقبات التي وضعت أمام المسلمين لينشغلوا عن حمل رسالتهم فقد حُمِلت، وتنوعت أساليب الدعوة وتفنن أصحابها بتبليغها وعاشوا وماتوا من أجلها، فكانوا كُمَاتَها وحُمَاتَها.

وهاتان صورتان يسمح بهما الوقت في فنون الدعوة من مئات الصور التي دعا بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الناس إلى الإسلام:

الصورة الأولى: دعوة ثُمامة بن أُثال وإسلامه:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلًا قِبَلَ نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له ثُمَامة بن أُثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي -يا محمد- خير، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت.

فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت.

فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أطلقوا ثمامة**»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

يا محمد! والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أُحبَّ الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا والله، ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم».

زاد في فتح الباري: (ثم خرج رضي الله عنه إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل).

فهاهنا أبقى النبي صلى الله عليه وسلم ثمامة مربوطاً في سارية المسجد ثلاثة أيام، ليحضر من دون إرادة منه صلوات المسلمين ويشاهد اجتماعهم وحلق الذكر والعلم فيهم، ويشاهد تعاونهم وتحاببهم وسلامهم ووداعهم، وحبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعتهم له وتآلفهم مع بعضهم، ويسمع آيات القرآن تتلى بالليل والنهار، ثم يحسنُ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمن عليه بالحرية من دون فداء، فما يكون منه إلى أن تؤثر فيه هذه الطريقة العملية في الدعوة فيسلم كما سمعتم.

الصورة الثانية: دعوة الطفيل لقومه ورفضهم الدعوة ثم استجابتهم:

روى البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن إسحاق بن يسار، قال: كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجال قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه، قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً فقلت في نفسي: واثكل أماه، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلت وإن كان قبيحاً تركت، قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد! إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله عز وجل إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولاً حسناً فاعرض عليّ أمرك. قال: فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله! إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

قال: فخرجت إلى قومي ...فأصبحت فيهم. فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً، ... قلت أسلمت وتابعت دين محمد، قال: يا بني فديني دينك، قال: قلت: فاذهب يا أبت فاغتسل وطهر

ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت، قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتتني صاحبتي فقلت لها: إليك عني فلست منك ولست مني، قالت: لم بأبي أنت وأمي؟ قلت: فرق الإسلام بيني وبينك: أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم، قالت: فديني دينك... قال: فذهبت واغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.

ثم دعوت دوسا إلى الإسلام فأبطئوا علي، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا نبي الله! إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: **«اللهم اهد دوسا»**، ثم قال: **«ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم»** فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معي من قومي، ... فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس).

فهاهنا يعرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام على الطفيل ويقرأ عليه والقرآن فيسلم، ثم ينطلق مباشرة داعياً قومه للإسلام فيستجيب أبوه وزوجه وتأبى عشيرته، ويعود ليطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم فيدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ويأمره بالتلطف في الدعوة معهم والرفق، فيرجع إليهم فيدعوهم ليعود بعد سنوات إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتا أو ثمانين كلهم قد أسلم.

أيها الإخوة:

في كل خطبة من خطب علمتني السيرة كنتُ أذكر المتن ثم أستخلص منه الدروس والفوائد؛ ولا أجدني محتاجا في خطبة اليوم لبيانها، إذ الأمر جَلِيّ والدرسُ واضح:

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم سني حياته في مكة والمدينة حاملاً همّ الرسالة كَلِفاً بأعباء الدعوة مهتماً لتبليغ ما أنزل إليه.

لأجل رسالة الإسلام يقوم ويقعد، ولأجلها يحل ويرتحل، ولأجلها يحارب ويسالم.

وربى جيلاً من الصحابة همُّهم همُّه وشغلُهم شغلُه ومرادُهم مرادُه.

لقد كان فرداً فصار أمة، كان واحدا عند (اقرأ) فصار أكثر من مائة ألف في حجة الوداع.

لقد أزاح التوحيدُ الإشراكَ، والعلمُ الجهلَ، والوحدةُ الفرقةَ، والحبُ البغضاءَ، والطهرُ الفحشاء.

وتنفست الأرضُ الصُعداء وصارت بدعوته سماءً دونها كلُّ سماء.

هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فماذا عنك أنت؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين